الفصل الأول

المقصود (بالسريرة) وصلاحها

أولاً: تعريف السريرة:

قال في لسان العرب: (السر: من الأسرار التي تكتم. والسر: ما أخفيت، والجمع أسرار، والسريرة كالسر. والجمع السرائر، والسر ما أسررت به. والسريرة: عمل السر من خير أو شر.

وأسر الشيء: كتمه وأظهره، وهو الأضداد. سررته: كتمته. وسررته: أعلنته، والوجهان جميعاً يفسران في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ [سبأ: ٣٣])[1].

ومن خلال هذا التعريف نستطيع القول إن:

السريرة: هو ما يكتمه المرء ويخفيه في نفسه من خير أو شر.

---

(١) لسان العرب: (٣/ ١٩٨٩).

ثانياً: السريرة الصالحة:

ورد ذكر السريرة الصالحة في كتاب الله ﷻ باسم (القلب السليم)، تعبيراً بالمحل عن الحال قال الله ﷻ في معرض ذكره لدعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩]. ومدح الله ﷻ خليله بقوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤].

ولا يكون القلب سليماً والسريرة صالحة حتى يتحلى بصفات ويتخلى عن صفات. يتحلى بالأعمال والاعتقادات القلبية الباطنة التي يحبها الله ﷻ، ويتخلى عن الأعمال القلبية والاعتقادات التي يبغضها الله ﷻ.

يصف الشيخ السعدي رحمه الله تعالى القلب السليم بقوله: (والقلب السليم معناه: الذي سلم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله وهواه تابعاً لما جاء عن الله)[1].

(١) تفسير السعدي عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وقد وضع الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى تعريفاً جامعاً مانعاً للقلب السليم ترجع إليه جميع الصفات والأعمال القلبية.

ولأهمية هذا التعريف فقد كرره في أكثر من موطن. في مدارج السالكين وفي كتاب مفتاح دار السعادة، وفي كتابه الفوائد، ومواطن أخرى.

فقال في منزلة (التسليم): (اعلم أن «التسليم» هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع. وصاحب هذا التخلص: هو صاحب القلب السليم، الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به)[1].

وفي منزلة (المراقبة) وما توجب على العبد قال رحمه الله تعالى: (وهي -أي المراقبة- توجب صيانة الباطن والظاهر. فصيانة الظاهر بحفظ الحركات الظاهرة، وصيانة الباطن بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة التي منها رفض معارضة أمره وخبره، فيتجرد الباطن من كل شهوة

(١) مدارج السالكين: (٢/ ١٤٧).

وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته، ومن كل شبهة تعارض خبره، ومن كل محبة تزاحم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به. وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين، وكل تجريد سوى هذا فناقص. وهذا تجريد أرباب العزائم)[1].

ولو تأملنا سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لرأينا حياة عظيمة كريمة، ملؤها الطهر والصفاء والتسليم، ومنبعها صلاح السريرة وسلامة القلب المتمثل بتجريد المحبة والتسليم والإخلاص والخوف والرجاء لله ﷻ. وعلى رأس هذه القافلة المباركة من أنبياء الله ﷻ ورسله خليلاه إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقد قص الله ﷻ علينا في كتابه الكريم نماذج من تسليم إبراهيم عليه السلام لربه، استحق من ربه ﷻ وصفه له بقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]. ومن أعظم هذه النماذج ما قصه الله ﷻ عنه عليه الصلاة والسلام حينما أمره بذبح ابنه الحبيب إلى قلبه الذي جاءه في آخر عمره وعلى حين

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٦٨).

فاقة وحاجة للولد. قال الله ﷻ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٥]. فظهر من هذه القصة تسليم الأب وابنه عليهما السلام لأمر الله.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عن هذا التسليم العظيم من إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام: (لقد أسلما.. فهذا هو الإسلام. هذا هو الإسلام في حقيقته. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم.. وتنفيذ.. وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم.

إنها ليست الشجاعة والجراءة. وليس الاندفاع والحماسة. لقد يندفع المجاهد في الميدان، يقتل ويقتل. ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود، ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر.. ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنما هو الاستسلام

الواعي المتعقل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هنا الرضى الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا. كانا قد أسلما. كانا قد حققا الأمر والتكليف. ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه.. وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما..)[1].

أما خليله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فيكفيه ثناء الله ﷻ له بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وهذا يشمل الأخلاق الباطنة والظاهرة.

ثم يأتي بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في صلاح السريرة وسلامة القلب الصديقون، وعلى رأسهم صديق الأمة الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الذي ظهر صلاح سريرته وصفاء باطنه في مواطن كثيرة من حياته، منها موقفه من

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٩٩٦).

دعـوة النبـي ﷺ ومسـارعته إلى أن يكون مـن أول الداخلين في الإسـلام، ومنها مبادرته رضي الله عنه إلى تصديق الرسـول ﷺ في إسرائـه إلى المسـجد الأقـصى وعروجـه إلى السـماء ورجوعه إلى المدينـة في ليلـة واحـدة في وقت ارتابت فيـه قلوب كثيرة وأجلب المشركون يشككون في صدق الرسول ﷺ.

ومـن أجل هذا التسـليم واليقين، قال أبو بكـر المزني رحمه الله تعالى: (ما فاق أبو بكر رضي الله عنه أصحاب محمد ﷺ بصوم ولا صلاة، ولكـن بشيء كان في قلبـه). قـال ابن علية معلقاً على هذا القول: (الـذي في قلبـه الحـب لله ﷻ والنصيحـة في خلقـه)[1]. ورفعـه بعضهـم بلفظ «مـا فضل أبو بكـر بفضل صـوم ولا صلاة، ولكـن بـشيء وقر في قلبـه» ذكره الغـزالي في الإحيـاء. وقال العراقـي: لم أجـده مرفوعـاً، وهو عنـد الحكيـم الترمذي في النـوادر من كلام بكر بن عبـدالله المزني. وفي لفظ: (ما فاتكم أو فضلكـم أبو بكر بكثير صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صـدره. وكل ذلـك لم يصـح مرفوعـاً، والله الموفق. وقال الفضيـل بن عياض: (ما أدرك عندنا مـن أدرك بكثرة الصلاة

(١) انظر غذاء الألباب: (١/ ٤٨).

والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة)[1].

والمقصود مما سبق بيان حقيقة القلب السليم، وحقيقة السريرة الصالحة، وأنها تقوم على التحلي والتخلي. التحلي بالأعمال والاعتقادات القلبية الصالحة التي هي أساس صلاح الأعمال الظاهرة، والتخلي عن الأعمال والاعتقادات القلبية الفاسدة والسلامة من الاعتراضات التي تفسد على القلب تسليمه لخبر الله ﷻ في كتابه وخبر رسوله ﷺ في السنة الصحيحة وتفسد عليه تسليمه لأمر الله ﷻ الشرعي وأمره القدري، وسلامته من الإرادات الفاسدة التي تفسد عليه محبته وإخلاصه وتوكله وخوفه ورجاءه الله تعالى.

وقد فصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أنواع الاعتراضات السارية في قلوب الناس، وذلك بقوله: (و «الاعتراض» ثلاثة أنواع سارية في الناس. والمعصوم من عصمه الله منها.

(١) المرجع السابق.

النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشبه الباطلة، التي يسميها أربابها قواطع عقلية. وهي في الحقيقة خيالات جهلية، ومحالات ذهنية اعترضوا بها على أسمائه وصفاته ﷻ، وحكموا بها عليه، ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، وأثبتوا ما نفاه، ووالوا بها أعداءه، وعادوا بها أولياءه، وحرفوا بها الكلم عن مواضعه، ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذُكِّروا به، وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي. فإذا سلم القلب له رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة. فاجتمع له السمع والعقل والفطرة، وهذا أكمل الإيمان. ليس كمن الحربُ قائم بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره. وأهل هذا الاعتراض ثلاثة أنواع:

أحدها: المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم، المتضمنة تحليل ما حرم الله ﷻ، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه،

وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها، والتحذير منها. وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض، وحذروا منهم، ونفروا عنهم.

النوع الثاني: الاعتراض على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان، وحظوظ النفوس الجاهلة.

والعجب أن أربابها ينكرون على أهل الحظوظ. وكل ما هم فيه فحظ، ولكن حَظَّهم متضمن مخالفة مراد الله، والإعراض عن دينه، واعتقاد أنه قربة إلى الله. فأين هذا من حظوظ أصحاب الشهوات، المعترفين بذمها، المستغفرين منها، المقربين بنقصهم وعيبهم، وأنها منافية للدين؟.

وهـؤلاء في حظـوظ اتخذوها ديناً، وقدموها على شرع الله ودينـه. واغتالوا بها القلـوب. واقتطعوها عن طريق الله. فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هـؤلاء خراب العالم، وفسـاد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه، ويبين معالمه، ويحميه من كيد من يكيد.

النوع الثالث: الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسـوله، وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل.

وقـال الآخـرون: إذا تعـارض الأثـر والقيـاس قدمنـا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشـف والوجد: إذا تعارض الـذوق والوجـد والكشـف وظاهـر الـشرع قدمنـا الـذوق والوجد والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع، قدمنا السياسة. فجعلت كل طائفة قُبالة دين الله وشرعه طاغوتا يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل، ولنا العقل. والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأخبار، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار. وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع. ولنا السياسة. فيالها من بلية، عَمت فأعمَتْ، ورزية رَمَتْ فأصمَت، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصفت، فصُمَّت منها الآذان، وعميت بها العيون. عطلت لها -والله- معالم الأحكام، كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام. واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل.

الاعتراض الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره. وهذا اعتراض الجهال.

وهـو ما بين جلي وخفي، وهو أنواع لا تحصى. وهو سـار في النفـوس سريـان الحمى في بـدن المحموم. ولـو تأمل العبد كلامـه وأمنيتـه وإرادتـه وأحوالـه، لـرأى ذلك في قلبـه عياناً. فكل نفس معترضة على قَدَر الله وقَسْـمه وأفعاله، إلا نفسـا قد اطمأنـت إليه، وعرفته حق المعرفة، التـي يمكن وصول البشر إليها. فتلك حظها التسليم والانقياد، والرضى كل الرضا)[1].

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٦٩-٧٠).